مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد10 /العــدد: 1 (2022)، ص: 90-107

صفاقس و الصراع القرطاجي الروماني

د.أ. محمد الحبيب بشاري[1]

[1]قسم التاريخ ، جامعة أبو القاسم سعدالله- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2022/03/16 تاريخ القبول: 17 /2022/03 تاريخ النشر: 2022/03/21

ظهر النوميديون على المسرح السياسي العالمي عند نهاية الحرب البونية الأولى، عندما تمرّدوا على الدولة القرطاجية فيما عرف بثورة المرتزقة، و ابتداء من الحرب البونية الثانية دخل مصطلح نوميديا في قاموس المؤرخين القدماء من إغريق و رومان، حيث ورد ذكر مملكتين تحملان نفس الاسم في غرب دولة قرطاجة، هما مملكة نوميديا الشرقية أو مملكة الماسيل(Massyles)، و مملكة نوميديا الغربية أو مملكة المصايسيل (Massaessyles)من طرف المؤرخ الإغريقي بوليب، و من بعده بعض المؤرخين الرومان أمثال تيت ليف(Tite Live) و صالوست (Salluste)، و مؤرخين آخرين إغريق أمثال أبيان (Appien)

Les Numides sont apparus sur la scène politique mondiale à la fin de la première guerre punique, lorsqu'ils se sont rebellés contre l'État carthaginois dans ce qu'on appelait la révolution mercenaire, et à partir de la deuxième guerre punique, le terme Numidie est entré dans le dictionnaire des historiens anciens. des Grecs et des Romains, où deux royaumes portant le même nom étaient mentionnés dans l'état occidental de Carthage, ce sont le Royaume de Numidie orientale ou Royaume de (Massyles), et le Royaume de Numidie occidentale ou Royaume de(Massyles)par l'historien grec Polype , et après lui des historiens romains tels

que Tite Live et Salluste, et d'autres historiens D'autres Grecs comme (Appien)

توتر العلاقات القرطاجية الرومانية

يبرز من خلال كتابات هؤلاء المؤرخين أنه في الربع الأخير من القرن الثالث قبل الميلادي، توترت العلاقة بين قرطاجة و روما، هذا التوتر الذي انتهى بقيام الحرب البونية الثانية، و إدراك الطرفان المتصارعان عدم قدرتهما على كسب الحرب دون دعم خارجي، لذلك وجه كل طرف نظره إلى القوتين القائمتين في الضفة الجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط، و هما مملكة نوميديا الشرقية و مملكة نوميديا الغربية، مستعملا في ذلك كل الوسائل للوصول إلى هدفه، تطبيقا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، و قد كُللت مجهودات قرطاجة بكسب دعم مملكة نوميديا الشرقية المجاورة لها، و التي كان على رأسها الملك غايا، ولتتويج تحالفهما أرسل الملك غايا ابنه ماسنيسا على رأس وحدة عسكرية نوميدية إلى إسبانيا، لدعم القوات القرطاجية التي كانت تحارب هنالك، في حين نجحت روما في التحالف مع مملكة نوميديا الغربية، القريبة من إسبانيا و التي كان على رأسها الملك صفاقس .

أظهرت أحداث الحرب البونية الثانية أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه مملكتا نوميديا الشرقية و الغربية في هذا الصراع، لذلك بعد أن ضمنت قرطاجة دعم غايا، سعت إلى كسب مساندة صفاقس و إبعاده عن روما،على اعتبار أنه كان يعد من أقوى و أغنى الملوك في الضفة الجنوبية الغربية لحوض البحر الأبيض المتوسط، و الدور الذي يمكن أن يلعبه في ترجيح كفة الميزان لهذا الطرف أو ذاك .

في نفس الوقت سعت روما لتدعيم موقعها بضم الملك غايا إلى صفها دون التفريط في دعم الملك صفاقس، لذلك شهدت فترة الحرب البونية الثانية إلى

صفاقس و الصراع القرطاجي الروماني

جانب الصراع العسكري القرطاجي الروماني، حربا دبلوماسية شرسة استعمل فيها كل طرف جميع الوسائل المتاحة له لتحقيق مخططاته ، لكن إذا كان الصراع بين قرطاجة و روما من أجل كسب دعم غايا قائما، فإن الصراع كان على أشده من أجل ضمان دعم صفاقس للأسباب المذكورة أعلاه .

فمن هو صفاقس و ما هو وزنه السياسي و العسكري ؟

ما هو الدور الذي لعبه في الحرب البونية الثانية ؟

إن التأريخ للملك صفاقس و غيره من الملوك النوميديين الآخرين يتوقف على ما ذكرته المصادر الكلاسيكية، في ظل غياب المصادر المحلية، و متفق عليه أن المؤرخين الإغريق و الرومان، لم يكتبوا سيرة صفاقس أو غيره من النوميديين، ولم يؤرخوا لنوميديا و غيرها من ممالك المغرب القديم، إنما أرخوا لروما و الأحداث التي مرت بها من حروب داخلية و خارجية، و لمؤسساتها و قادتها ، و لم يرد ذكر صفاقس و غيره من القادة النوميديين، و نوميديا الغربية و بقية الممالك إلا عَرضا، و بالتالي قدّموا لنا وجهة نظر المنتصر في المهزوم، كما حكمهم على الزعماء النوميديين يتغير بتغير موقف هؤلاء من روما، لذلك لا ننتظر منهم أن يكونوا منصفين في حكمهم على من حاول التصدي لطموحاتهم التوسعية، و سعى أن يغلق باب بلاد المغرب القديم في وجههم، و حارب قواتهم.

وزن صفاقس السياسي و العسكري في بلاد المغرب القديم

لهذا لما نتمعن في كتاباتهم نجد أن أحكامهم على الملوك النوميديين مزاجية تتغير مع تغير مواقف الملوك، فهم يطنبون في ذكر محاسن الملوك الذين يساندونهم مثل ماسنيسا و مكيبسا و بعدهما يوبا الثاني، بينما يبالغون في ذكر مساوئ الملوك الذين يعارضون مشاريعهم في المنطقة، مثل صفاقس و من بعده يوغرطه و يوبا الأول، و هذا طبيعي من منظار المصالح الإستراتيجية المشتركة لكل طرف.

لكن رغم موقف المؤرخين الإغريق و الرومان المعادي لصفاقس، لم يستطيعوا نكران وزنه السياسي و العسكري في ساحة المغرب القديم، و حتى في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي في الربع الأخير من القرن الثالث قبل الميلادي ، حتى أن القوى المتصارعة آنذاك، المتمثلة في قرطاجة و روما كانت تتسارع للتقرب منه و تسعى لكسب دعمه العسكري، لأنه في نظرها كان مفتاح الانتصار النهائي في الحرب الدائرة بينهما. و في هذا الشأن يذكر تيتوس ليفيوس (Tite Live) [1] أنه فيما بين 214/215 ق.م. ، و إثر الانتصار على قرطاجة بإسبانيا ، أخذ الإخوة سكيبيو يستعدان لنقل الحرب إلى إفريقيا لإجبار حنبعل على الانسحاب من إيطاليا، لكنهما كان يدركان صعوبة المهمة ، و ضرورة ضمان دعم قوي في الأرض الإفريقية، لهذا استغلا الخلافات التي وقعت بين نوميديا الغربية و قرطاجة و تردي العلاقات بينهما لربط الاتصال بصفاقس، و حثّه على التحالف مع روما بإعلان الحرب على قرطاجة، مقابل إقامة معاهدة صداقة وتحالف بينهما، و أن مجلس الشيوخ الروماني سيرد له الجميل في الوقت المناسب[2]. و قد أوكل سكيبيو مهمة نقل المقترح الروماني إلى الملك النوميدي الغربي لثلاثة ضباط، و قد رحّب صفاقس بمبادرة سكيبيو، محاولا الاستفادة من التجربة الرومانية في المجال العسكري لتطوير جيشه .

فقد اتضح لصفاقس بعد أن تحادث مع المبعوثين الرومان حول مسائل الحرب، الفرق الكبير بين الآلة العسكرية الرومانية، و الانضباط الذي يسود الجيش الروماني، و تنظيمه المحكم، و جيشه المتكون من مقاتلين الذين رغم شجاعتهم ليسوا ماهرين في معارك المشاة، فهم لا يجيدون إلا القتال على ظهور خيولهم مثل أسلافهم، و أن مملكته تنجب عددا مرتفعا من الرجال، لكنه يجهل كيفية تسليحهم و تنظيمهم في وحدات، و أن جيشه لا يمثّل إلا حشدا من الرجال

[1] (Histoire romaine, traduction nouvelle, Danielle de Clercq, Paris, 2001, XXIX, 48

[2]) Tite live , loc cit

جمعوا بطريقة عشوائية يمثّلون كتلا فوضوية، و لأن عدوه (القرطاجيون) يملك وحدات مشاة قوية، و حتى يتمكن من مجابهتهم على قدم المساواة، يجب عليه تكوين وحدات من المشاة في مستواهم[3]، لذلك اشترط أن ترسل له روما ضباطا يدربون جيشه على الأساليب العسكرية الرومانية، و فنون القتال و التنظيم المحكم للجنود[4]. إثرها عاد ضابطان لإيصال طلب صفاقس للقائد سكيبيو، و بقي ستاتوريوس(Statorius) المبعوث الثالث في سيغا، و قد استغل وقته ليبدأ في تكوين وحدة مشاة نوميدية على الطريقة الرومانية استجابة لطلب الملك. [5]

أمام التقارب النوميدي الغربي الروماني وجدت قرطاجة نفسها مجبرة على التقرب من نوميديا الشرقية، و نجحت في إقناع الملك غايا بخطورة التحالف بين سكيبيو و صفاقس على مستقبله و مستقبل مملكته، و عليه التحالف معها إذا ما أراد الحفاظ على مُلكه [6] . شعر الملك غايا بالخطر و خضع للضغط القرطاجي، و لتجسيد التحالف بينهما أرسل ابنه ماسنيسا على رأس قوات نوميدية لدعم القوات القرطاجية التي كانت تحارب في إسبانيا، بعد أن وعده القائد حصدربعل بن جيسكون بتزويجه من ابنته الأميرة سفونيسبي.[7]

---

[3]) Ibid , XXIX, 48

([4]في هذا الشأن تختلف رواية أبيانوس عما رواه تيتوس ليفيوس ، إذ يذكر الأول أن سكيبيو بعد انتصاره في إسبانيا على القرطاجيين و استعداده لنقل الحرب إلى إفريقيا أوفد مساعده لايليوس على رأس خمسة سفن للقاء صفاقس ليقدم له هدايا و يذكّره بصداقته لأسرة سكيبيو، و يطلب منه التحالف مع الرومان ضد قرطاجة في حالة نقله الحرب إلى إفريقيا، فاستجاب الملك صفاقس لطلبهم، و قد أثارت هذه المبادرة مخاوف قرطاجة، فأوفدت بدورها وفدا للقاء صفاقس و السعي لجلبه إلى صفّها، و حتى يقطع الطريق سكيبيو أمامهم أسرع للتنقل بنفسه إلى سيغا عاصمة نوميديا الغربية لاقناع صفاقس بالإبقاء على تحالفه مع روما ، Appien, Guerre Iberique, VI, 29 .

، Tite Live , XXVIII17في حين يذكر تيتوس ليفيوس أن انتقال سكيبيو إلى إفريقيا تم سنة 206 ق.م.

[5]), Ibid, XXVIV, 48

[6]) Ibid , XXIV, 49

[7]) Appien , Guerre libyque, 10

كانت سفونيسبي رائعة الجمال حيث إلى تناسق دقيق في أجزاء الجسم و انسجامها الجيد، جمعت بين زهرة الشباب و المعرفة العميقة للآداب و الموسيقى عقلا مفعما باللطف و الأناقة، و في كلمة واحدة كان لها من

استمر الوضع على هذه الحال، و قد أبلى الأمير النوميدي بلاء حسنا، حيث خاض عدة معارك ضد الرومان و صفاقس بمفرده أحيانا، و إلى جانب القرطاجيين أحيانا أخرى، حتى أنه تحدى صفاقس في إحدى المعارك و قتل له ثلاثين ألف مقاتل و دفعه إلى الفرار[8]. في نفس الوقت منح مجلس الشيوخ الروماني صداقة الشعب الروماني للملك المصايسيلي، و كعربون لهذه الصداقة أرسل له عدة هدايا تتمثل في عباءة أرجوانية و كرسيا من العاج و كأسا من الذهب. [9]

إن التحالف بين قرطاجة و دولة الماسيل لم يغير نظرة القرطاجيين لصفاقس، فقد كانوا واعون للوزن العسكري الذي يمثّله، و الخطر الذي يكونه عليهم إذا استمر في تحالفه مع روما، لذلك سعوا بكل الوسائل لإبعاده عن الرومان و كسب دعمه، لهذا دخلوا في سباق محموم مع أعدائهم، و هو السباق الذي اعتمد فيه كل طرف على كل الوسائل المتاحة، و في هذا السياق أرسلت قرطاجة عدة وفود لملك المصايسيل من أجل إنعاش الصداقة القديمة بينهما.[10]

مؤتمر سيغا

و بالنسبة للملك صفاقس، فرغم قبوله الهدية القرطاجية، لم يتخل كلية عن الرومان، فقد بقي على اتصال بهم، و يظهر أنه أدرك الانعكاسات الخطيرة للصراع القرطاجي الروماني على مستقبل نوميديا، خاصة أمام سعي الرومان نقل الحرب إلى الأرض الإفريقية، لذلك عمل بكل ما أوتي من قوة لمنع وصول الحرب إلى وطنه، محاولا إقناع الطرفين المتصارعين على حل خلافاتهما بالطرق السلمية، مستغلا تسابق القرطاجيين و الرومان للتحالف معه، كما حدث

المفاتن إلى درجة أن ظهورها أو نطقها بكلمة واحدة كانت تكفي لترويض القلوب الأكثر تمردا ، Dion Cassius, Histoire romaine, CCXI

[8]) Tite Live, XXIV, 49
[9]) Appien , Guerre Iberique, VI, 29
[10]) Ibid

صفاقس و الصراع القرطاجي الروماني

في سنة 206 ق.م. بسيغا عندما التقى القائدان حصدربعل و سكيبيو في قصره، وهو اللقاء الذي يمكن إدراجه ضمن المؤتمرات الدولية الكبرى في العصور القديمة، لا سيما أنه جمع تحت سقف واحد و حول مأدبة عشاء؛ و لو صدفة؛ قادة أقوى دولتين في العالم آنذاك، و اقترح عليهما أن تكتفي روما بما تملكه في شبه جزيرة إيطاليا و الجزر القريبة منها و إسبانيا، و قرطاجة بأرضيها الإفريقية، وتأمر قائدها حنّبعل الانسحاب من إيطاليا، لكن هذا المؤتمر كان محكوم عليه بالفشل، و عدم الخروج بنتائج إيجابية، بسبب سوء نية كل طرف، حيث كان كل طرف يبحث عن كسب الوقت و ضمان دعم مملكة المصايسيل. فسكيبيو مثلا تذرّع بعدم قدرته على مناقشة أي موضوع مع العدو دون موافقة من مجلس الشيوخ.[11] و رغم أن اللقاء لم يخرج بنتيجة تخدم إنهاء الحرب بالطرق السلمية، فإنه أبرز مما لا يدع مجالا للشك المكانة التي كان يتمتع بها في صفاقس لدى القرطاجيين و الرومان .

أمام فشل مؤتمر سيغا، تمسّكت قرطاجة بكسب دعم صفاقس، و في هذا الشأن لعبت كل أوراقها ، باعتمادها على الوسيلة التي استعملتها من قبل مع الأمراء النوميديين، و هي ربطهم بها عن طريق المصاهرة، لذلك عملت على ربط صفاقس بها عن طريق تزويجه بالأميرة سفونيسبي ابنة حصدربعل ابن جيسكون[12]، التي وعدت بها ماسنيسا من قبل دون علم والدها، و نجحت في مسعاها ، و حتى تظمن نجاح خطّتها عجّل الطرفان بعقد الزواج باستقدام

11) Tite Live, XXVIII, 18

12) Appien Guerre Iberique ; VII, 37 ; Appien , Guerre libyque, 10

سبق لقرطاجة أن استعملت أسلوب مصاهرة الماسيل لتحقيق أغراضها ، حيث نجد أن القائد القرطاجي حملقرط الذي تصدى للمرتزقة غداة الحرب البونية الأولى وعد الأمير نرفاس بتزويجه ابنته عندما تحالف معه ، و من بعده تزوج أوزلكاس (Oezalces). قريبة القائد حنبعل

Gabriel Camps, Aux origines de la Berberie , Massinissa ou les débuts de l'histoire,1960Libyca archéo. Epig., t.VIII, 1° semestre .,1960, p,160

الأميرة من قرطاجة إلى قصر صفاقس، و في نفس الوقت تعهد الطرفان بأن يكون لهما في المستقبل نفس الأصدقاء و نفس الأعداء.[13]

كان لقرار قرطاجة التخلي عن وعدها لماسنيسا بتزويجه بالأميرة سفونيسبي و تحالفها مع صفاقس، انعكاسات خطيرة و مصيرية على تاريخ المنطقة، إذ شعر ماسنيسا بخيبة أمل كبيرة، و فقد الثقة في قرطاجة، و أسرع إلى التحالف مع الرومان سرا في البداية و علانية فيما بعد.[14]

استرجاع ماسنيسا عرش نوميديا الشرقية

في هذا الوقت عرفت نوميديا الشرقية تطورات مهمة أثّرت على مستقبلها، حيث مات الملك غايا في بداية سنة 206 ق.م.؛ و وفق العرف النوميدي؛ ورث العرش أكبر أفراد الأسرة الحاكمة، و في هذه الحالة خلفه آخاه أوزلكاس(Oezalces)، لكنه توفي بعد مدة قصيرة من صعوده على العرش نظرا لكبر سنه، فخلفه ابنه كابوسا(Capussa)، لكنه واجه في صيف 206 ق.م. معارضة شديدة من طرف أحد أفراد الأسرة المالكة المنافسة له، و هو مايزيتولوس (Maezutullus)، الذي تمرد عليه و أجبره على القتال أين قتل، و بذلك سيطر مايزتولوس على السلطة، لكنه لم يتربع على العرش، فقد خير التحكم في الأمور من بعيد، و ذلك بتنصيبه لكومازوس (Lacumazes) الأخ الأصغر لكابوسا على العرش. [15]

كان ماسنيسا يحارب في إسبانيا إلى جانب الجيش القرطاجي لما وصلته أخبار الأحداث التي شهدتها نوميديا الشرقية، فعاد إلى وطنه لاسترجاع عرش والده الذي يعود له شرعا بعد كابوسا، و فعلا نجح في العودة بدعم من باغا (Baga)ملك موريطانيا[16]، و استرجع عرش أجداده. [17]

---

[13]) Tite live, XXIX, 23
[14]) Appien, Guerre Iberique, VII, 37 ; Appien , Guerre libyque, 10
[15]) Tite Live, XXIX, 29
[16]) Ibid , XXIX, 30

صفاقس و الصراع القرطاجي الروماني

لم يول صفاقس أي اهتمام للأحداث التي كانت تعيشها نوميديا الشرقية، و لم تثر فيه عودة ماسنيسا و استرجاع عرشه أي مخاوف، لكن دهاء قرطاجة جعله يغير موقفه، حيث أقنعته أن ماسنيسا شاب ذكي و شجاع و طموح، و لن يكتف بما ورثه، و سوف يسعى لتوسيع مملكته على حسابه، لذلك يجب القضاء عليه في بداية مشواره قبل أن يتقوى عوده . لهذا نقل في سنة 205 ق.م. جيشا ضخما و تمركز في منطقة كان قد تخاصم بشأنها مع الملك غايا، و استعد لإعلان الحرب على نوميديا الشرقية إذا ما حاول ماسنيسا التصدي له، و في حالة عدم مقاومته، يواصل التوغل في أراضيه، و كما كان منتظرا تصدى له ماسنيسا، لكنه هُزم و انسحب مع من نجا من فرسانه، و بذلك فرض صفاقس سلطته على نوميديا الشرقية و ضمها إلى عرشه [18] و وحّد المملكتين.

أصبح ماسنيسا يعيش متنقلا من مكان إلى آخر لا يستقر في موقع، بسبب مطاردة قائد قوات نوميديا الغربية و مساعد صفاقس بوكار (Bucar) له حتى وصل إلى مدينة كلوبيا Clupea/) قليبية)، أين حاصره، و دارت معركة حامية الوطيس، قتل فيها معظم من كان مع ماسنيسا. و مرّة أخرى نجا العاهل الماسيلي بأعجوبة صحبة عدد قليل جدا من مقاتليه، و ظن بوكار أنه لقي حتفه [19] لذلك توقف عن مطاردته. لكن مدة قصيرة بعد ذلك ظهر من جديد على مسرح الأحداث، فقرر صفاقس قيادة عملية مطاردته بنفسه، و فعلا التقى الملكان، وكان النصر لصفاقس، و مرة أخرى نجا ماسنيسا .[20]

نزول سكيبيو بإفريقيا و انعكاس ذلك على الأطراف المتصارعة

تغيّرت في سنة 204 ق.م. معطيات الصراع بين قرطاجة و روما من جهة و ماسنيسا و صفاقس من جهة أخرى، إثر نزول القوات الرومانية بقيادة

---

17) Appien, Guerre libyque, 11
18) Tite Live, XXIX, 31
19) Ibid , XXIX, 32
20) Ibid, XXIX, 33

القائد سكيبيو بإفريقيا، فقد تحالف ماسنيسا مع الرومان الذين وجدوا فيه السند القوي لهم في الأرض الإفريقية [21] بعد أن فقدوا الأمل في كسب دعم صفاقس، الذي أدرك خطر نزول القوات الرومانية بإفريقيا على مستقبله ومستقبل مملكته و كل بلاد المغرب القديم، لذلك عاد إلى فكرته الأولى التي طرحها على حصدربعل و سكيبيو لما استقبلهما في قصره بسيغا، التي تتمحور حول رفضه سيطرة الرومان على قرطاجة و نوميديا، و ضرورة اكتفاءهم بشبه جزيرة إيطاليا وصقلية و سردينيا و إسبانيا، و ضرورة انسحاب الجيش القرطاجي من إيطاليا، و اكتفاء القرطاجيين بما يملكونه في إفريقيا[22]، و أنه يعتبر عدوا له كل من يعارض هذا الطرح، و في نفس السياق حاول الاتصال بماسنيسا و إقناعه بهذا التصور واعدا إياه بإعادته له مملكته و تزويجه بإحدى أخواته[23]، وأمام رفض ماسنيسا الرد عليه أدرك فشله في مسعاه و أعلن انضمامه إلى قرطاجة.

في الوقت الذي اعترف فيه صفاقس بفشله في التوفيق بين الطرفين المتصارعين، و تجنيب إفريقيا صراعا قرطاجيا رومانيا، و تحالفه مع قرطاجة، كان القائد سكيبيو من جانبه يخطط لإحياء الحلف القديم بين روما و صفاقس لعزل قرطاجة من جهة، و ضمان دعم من كان يعتبره أقوى الملوك الأفارقة و أغناهم، لذلك أعاد الاتصال به و أرسل له العديد من الوفود، من أجل إقناعه بالتخلي عن قرطاجة و التحالف مع روما، منطلقا من فكرة أن تخلي صفاقس عن الرومان و انحيازه لقرطاجة يعود إلى تأثير زوجته القرطاجية سفونيسبي، و أنه مثل كل الأفارقة سيسأم منها بسرعة و يتخلى عنها و يعود إلى حضن روما من جديد .[24]

---

[21]) Appien , Guerre libyque, 14
[22]) Tite Live , 3 ; Appien , Guerre libyque, 17
[23]) Appien , Guerre libyque, 17
[24]) Polybe, Histoire romaine, XIV, 1.2 ; Dion Cassius, Histoire romaine, CCXIV

صفاقس و الصراع القرطاجي الروماني

استغل صفاقس اتصال سكيبيو به لإحياء مشروعه القديم، و قد أعطاه الرومان الانطباع أنهم لا يرفضون فكرته، لكنهم في الحقيقة لم يكونوا صادقين، إذ في الوقت الذي كانوا يتفاوضون حول إنهاء الحرب بالطرق السلمية، كانوا يستعدون لتوجيه ضربة قوية للقوات النوميدية و القرطاجية، حيث إلى جانب المفاوضين كان سكيبيو يرسل جواسيس رومان متنكرين في هيئة عبيد للتعرف على نقاط قوة و نقاط ضعف معسكر صفاقس .[25]

لقد أظهر الرومان دهاء و حنكة في تسيير المفاوضات مع صفاقس، فقد أقنعوا الملك النوميدي أنهم مستعجلين لعقد السلم، لذلك خفّت يقظة جنوده مما سمح للجواسيس الرومان بالتحرك في المعسكر النوميدي بحرية مطلقة، لذلك ما أن أنهى سكيبيو استعداداته للحرب، حتى طلب من مبعوثيه إعلام صفاقس أن الوقت حان لاتخاذ قرار نهائي، فإما أنه اتخذ قراره بشأن مصير الحرب، و إذا كان عليه التشاور مع القرطاجيين يجب عليه التعجيل.

ما أن علم القرطاجيون بذلك حتى اعتقدوا أن سكيبيو أنهكته الحرب، وهو مستعد لإمضاء معاهدة سلم مهما كانت الشروط، و لم يتفطنوا للمكيدة التي نصبها لهم، لذلك أضافوا شروطا جديدة، و هي الشروط التي تذرع بها سكيبيو لإعلانه إيقاف المفاوضات[26] . لذلك لم تأت سنة 203 ق.م. حتى تجدد القتال بين أطراف الصراع، و ذلك بمهاجمة الرومان لمعسكر صفاقس بغتة ثم معسكر القرطاجيين و حرقهما .[27]

انسحب صفاقس بعد حرق معسكره إلى حصن غير بعيد، و بعد مشاورات مع قرطاجة قرر الطرفان مواصلة الحرب .

أسر صفاقس

---

[25]) Polybe, XIV, 1.9 ; Tite Live , XXX, 4
[26]) Polybe, XIV, 2.1 ; Tite Live, XXX, 4
[27]) Polybe, XIV, 4 .1- 5.1 ; Tite Live, XXX, 5 ; Appien, Guerre libyque, 21, 22

ابتداء من هذا االتاريخ سارت الأمور بالنسبة لصفاقس من سيئ إلى أسوء، ففي شهر أفريل من سنة 203 ق.م. انهزم في معركة السهول الكبرى[28] ، وأشهر قليلة بعد ذلك (في شهر جوان من نفس السنة)، و في خضم معركة جديدة سقط أرضا بعد أن أصيب حصانه، فحاصره أعداءه من كل الجهات وألقوا عليه القبض، و نقلوه إلى القائد الروماني لايليوس.[29]، الذي نقله بدوره أياما قليلة بعد ذلك إلى مقر القائد سكيبيو، و قد لقي منه معاملة حسنة، وسأله عن الأسباب التي دفعته إلى التحالف مع قرطاجة و رفضه التحالف مع روما، و أكثر من ذلك إعلانه الحرب عليها دون سبب. اعترف صفاقس أنه ارتكب خطأ، و اقترف عملا جنونيا، لكن ليس بحمله السلاح ضد روما، هذه هي نهاية وليس بداية جنونه، و ضياعه ونسيانه لكل قوانين الضيافة، و كل المعاهدات، فقد بدأ ذلك في اليوم الذي أدخل إلى قصره امرأة من قرطاجة، شعلة هذا الزواج أحرقت بلاطه، كانت هذه المرأة الشريرة، هذا الشيطان القاتل الذي سحر بجماله قلبه و أفسد عقله، هذه المرأة التي لم يهدأ لها بال حتى وضعت بنفسها بين يدي زوجها الأسلحة لمهاجمة مضيف .[30]

أياما بعد ذلك نقل صفاقس إلى روما و أدخل سجن ألبا [31](Alba)و منه نقل إلى تيبور(Tibur) أين توفي، مما أنقذه من إهانة عرضه في حفل انتصار سكيبيو، و قد نقل جثمانه إلى مثواه الأخير في جنازة رسمية .[32]

موت سفونيسبي

---

[28]) Tite Live, XXX, 11

[29]) Appien, Guerre libyque, 26

[30]) Tite Live , XXX, 13 ; Appien , op cit, 27

[31]) ألبا ، مدينة رومانية تدعى ألبا فوكانس (Alba Fucens) تقع شرق روما بجبال الأبنان على ارتفاع 1020 م. و على مسافة 100 كلم من روما ، استعملت لسجن الملوك ، فبالاضافة إلى صفاقس الذي قضى بها سنتين ، نجد بيرسي ملك مقدونيا الذي سجن بها سنة 167 ق.م. و كذلك بعض الزعماء الغاليين

[32]) Ibid, XXX, 45

صفاقس و الصراع القرطاجي الروماني

توجه ماسنيسا بعد هذا الانتصار صحبة لايليوس إلى كيرتا عاصمة صفاقس، و حاول الدخول إليها لكن سكانها رفضوا استقباله في البداية، لكن تراجعوا عن قرارهم لمّا شاهدوا صفاقس مقيدا. ما أن فُتحت له أبواب المدينة حتى توجه ماسنيسا مباشرة إلى القصر الملكي، و عندما همّ بالدخول إليه التقى على عتبة الباب بالأميرة سفونيسبي، و قد أثارت رؤيتها في نفسه مشاعره القديمة نحوها، خاصة بعد أن توسلت له أن يحميها من الرومان بقولها :"" إننا تحت تصرّفك كلية، آلهتك ، فضائلك و حظك السعيد قرروا هكذا، إذا كان بإمكان أسيرة رفع صوت ترجّي أمام من يستطيع منحها الحياة أو يلحق بها الموت، إذا كان بإمكانها تقبيل قدميك... أترجاكم و أتوسل لكم ... أمنحوا توسلاتي فضل تحديد مصير أسيرتكم بنفسكم مثلما تلهمكم نفسكم، و إعفائي من قسوة ازدراء سيد روماني ... إذا لم يكن لديكم حلا آخر غير الموت لإنقاضي من التبعية للرومان، أترجاكم و أتوسل لكم أقتلوني ..." [33]

بعد أن استمع ماسنيسا لهذا الكلام اتخذ قرارا جريئا فيه نوع من التحدي للسلطة الرومانية ، و هو الزواج من الأميرة سفونيسبي، حتى يضع القائد الروماني لايليوس أمام الأمر المقضي، و لا يمنحه فرصة نقلها إلى سكيبيو ومعاملتها كأسيرة، و هي زوجته[34] احتراما لشخصه.

لقد أثار ما أقدم عليه الملك ماسنيسا حفيظة القائد الروماني سكيبيو لما سمع بذلك، و عند عودته إلى مركز القيادة خاطبه بعبرات قاسية، حيث قال له :" صفاقس هزم و أسّر برعاية الشعب الروماني، و هكذا شخصه و زوجته، بلاده ساحاته و شعبه، و أخيرا كل ما كان لصفاقس أصبح فريسة للشعب الروماني، الملك و زوجته، ألم تكن قرطاجية و والدها القائد الذي نراه على رأس أعداءنا ؟ يجب أن يرسلا إلى روما حتى يقرر مجلس الشيوخ و الشعب الروماني، و يصدرا

[33]) Ibid, XXX, 30
[34]) Ibid , XXX, 12 ; Appien , Guerre libyque, 27

حكمهما بشأن مصير امرأة دفعت ملكا إلى التخلي عن حلفنا، و إلى الحرب مطأطئ الرأس ، أكتم عاطفتك و لا تلطخ فضائلك بعيب واحد [35] ، ردّ عليه ماسنيسا بأنه يفوض له أمره ، و ترجّاه أن يأخذ بعين الاعتبار بقدر ما تسمح به الظروف الوعد الذي قطعه على نفسه بعدم تسليم سفونيسبي لأحد. [36]

توجه ماسنيسا مباشرة بعد ذلك نحو خيمته، و بسرعة قرر تنفيذ وعده الثاني لسفونيسبي، و هو عدم تسليمها للرومان حية، و أمر عبده أن ينقل لها السم و يقول لها :" كان ماسنيسا يتمنى أن ينفّذ وعده الأول مثلما تنتظره امرأة من زوجها، لكن نظرا أنني مجرد من طرف سلطة عليا من حق التصرف في قدره، يتمسك بوعده الثاني و يجنّبك مأساة السقوط في يد الرومان، سوف تعرف عندما تفكّر في القائد والدها و وطنها، و في الملكين الذين تزوجتهما، اتخاذ القرار الصائب".[37]

كان رد سفونيسبي على مبعوث الملك ماسنيسا أن أخذت منه السم وقالت:" أقبل هدية الزواج هذه، أقبلها مع الاعتراف بالجميل، إذا كان هذا كل ما يمكن أن يفعله زوج لزوجته، قل له رغم ذلك أن الموت كان يمكن أن يكون ألطف لو لم يكن يوم زفافي هو يوم جنازتي و شربت السم دون تردد. [38]

في حين يذكر أبيانوس أن سكيبيو غضب كثيرا من محاولة ماسنيسا وضعه أمام الأمر المقضي بتزوجه من سفونيسبي، حيث قال له ليس من الجائز الاحتفاظ بالقوة بالجثة و الغنائم التي تعود ملكيتها للشعب الروماني، إثرها توجه ماسنيسا مع مفرزة رومانية لتسليمهم الملكة، و قد سبق الجميع للقصر الملكي، وما أن التقى بسفونيسبي حتى عرض عليها السم و هو فوق حصانه مبرزا لها أن ذلك ضروري، أن تذهب إلى العبودية لدى الرومان أو تشرب السم. قال ذلك ثم

---

[35])Tite Live, XXX, 14
[36]) Ibid, XXX, 15
[37]) Ibid
[38]) Ibid , XXX, 15

وخز حصانه و تركها، بعدما ذهب ، عرضت كأس السم على خادمتها قائلة لها، لست نادمة على الموت بهذه الطريقة، ثم شربت السم . بعد أن ماتت أمر ماسنيسا عرض جثتها على المفرزة الرومانية التي اصطحبته[39]، إثرها و كأنه أنجز ما كان قد أُمر به ، عاد إلى سكيبيو في لباسه الملكي، و عندما شاهد هذا الأخير عظمة قلبه(عواطفه) أثنى كثيرا على تخلصه من هذه المرأة السيئة، و بعد أن شرّفه بعدد من الأوسمة و كرّمه بهدايا كثيرة أعاده إلى مملكته. [40]

نتائج اختفاء صفاقس من المسرح السياسي الافريقي

إن اختفاء شخصية الملك صفاقس يعتبر حدثا مهما ، غير مجرى تاريخ بلاد المغرب القديم لما تمخض عنه من نتائج قريبة و بعيدة المدى، كما يعطينا تناول المؤرخين الإغريق و الرومان لتاريخ بلاد المغرب في هذه المرحلة و لو عرَضا نظرتهم إلى الحكام الأفارقة .

بالنسبة للنقطة الأولى، سمح اختفاء صفاقس لماسنيسا بتوحيد مملكتي نوميديا الشرقية و الغربية و الانفراد بحكمهما، و مساهمته في تطورها واستقرارها بنشره الأمن، مما ساعد على الحد من ظاهرة الترحال التي ميزت جزءا كبيرا من سكان المنطقة، و هذا بدوره أعطى دفعة قوية للزراعة، حتى أصبحت نوميديا ممونا أساسيا لروما بالمواد الغذائية و خاصة الحبوب، و الثروة الحيوانية و على رأسها الخيول، و في هذا الشأن قال سترابون بنوع من المبالغة :"... صحيح أن الفضل في تحضير النوميديين يعود إلى هذا الملك(ماسنيسا)، كما عوّدهم على الحياة الفلاحية، و أبعدهم عن السطو ليعلمهم حرفة الجندية. حتى هذا الوقت قدم النوميديون صورة غريبة لشعب يملك أراضي خصبة جدا، لكنها مليئة بالحيوانات الضارية، الذين عوض القضاء عليها لزراعة أراضهم في أمان، اختاروا ممارسة اللصوصية بشكل غير محدود، و تركوا الأرض للزواحف و الحيوانات

---

[39]) Appien , Guerre libyque, 28
[40]) Ibid

المفترسة، محولين أنفسهم طواعية إلى حياة التنقل و الترحال... و هذا ما أعطى المصايسيل تسمية النوميديين(Numide). في هذه الأوقات كانت حياتهم بسيطة، يأكلون العروق أكثر من اللحوم، يتغذون كذلك بالحليب و الجبن.. " .[41]

و قد أعطى تطور الزراعة و تحسن الإنتاج، دفعة قوية لبقية القطاعات الاقتصادية الأخرى المرتبطة بها مثل الصناعة الغذائية و التجارة .

و بالنسبة للنتائج بعيدة المدى، فقد أدى اختفاء صفاقس و انتصار ماسنيسا و الرومان في الحرب البونية الثانية، إلى الحد من القوة القرطاجية عسكريا بعد تجريدها من سلاحها، و اقتصاديا بعد فقدانها لمناطقها الحيوية في شمال إفريقيا و إسبانيا، مما مهد للقضاء عليها نهائيا في سنة 146 ق.م. و قد ساهم ماسنيسا مساهمة فعالة في ذلك بفضل حرب الاستنزاف التي أعلنها عليها بدعم و تزكية من روما، حيث دفعها إلى مخالفة معاهدة زاما بإعلانها الحرب عليه، و هو ما كان ينتظره الرومان، الذين تميزت سياستهم بالتخطيط للمدى المتوسط و البعيد، فقد استغلت روما هذه الفرصة للدخول في حرب ضدها، خاصة أنها أدركت أن قرطاجة لم تعد قادرة على المقاومة و التصدي لها .

كما جاء إعلان الحرب على قرطاجة للوقوف في وجه مشروع ماسنيسا الطموح بالدخول إلى مدينة قرطاجة و لما لا جعلها عاصمة له[42] ، مما أدى إلى تردي العلاقة بين العاهل النوميدي و روما ، حيث استنتج الملك النوميدي من إعلان روما الحرب البونية الثالثة على قرطاجة دون إعلامه بتناسيهم كل ما قدّمه لهم من خدمات، و لهذا أرسل إلى روما يشتكي و يتظلم قائلا :" كم من مرة كانت لي الفرصة لجلب القرطاجيين إلى أقدام الرومان، و هو يرى الآن أنهم لا يعيرونه أدنى اهتمام، و لا يعلمونه بما يقدمون عليه حتى يحدث، كم من مبعوث و رسالة

---

41) Strabon , Geographie, XVII, 3, 15

42) Valerius Maximus , Des faits et des paroles mémorables , trad. M. Nisard, Paris, 1850, VII, 2,7

نقلت إلى أماكن أخرى ..." و قد جاء رد القناصل مخيبا لآماله، حيث اكتفوا بالطلب منه إيفاد مساعدات عسكرية و كأنه موظفا عندهم، لذلك رفض تلبية طلبهم، حيث ردّ عليهم بأنه سيوفد المساعدات عندما يدرك أنهم بحاجة إليها ..."[43] .

و بغض النظر عن مدى صحة ما نقله لنا المؤرخون الإغريق و الرومان، فإن ما يلاحظ هو اعتبار الرومان للنوميديين و غيرهم من شعوب المغرب القديم بربرا متخلفين، لم يرقوا إلى مستوى الحضارة الرومانية، و نفس النظرة للملوك فهم يرون فيهم بشرا ضعافا تحركهم الغرائز الحيوانية ، و لا يستطيعون مقاومة الإغراءات مهما كان نوعها، فهذا صفاقس يتخلى عن مصلحته و مصلحة وطنه من أجل امرأة هي الأميرة سفونيسبي، و نفس الشيء بالنسبة لماسنيسا فهو يتزوج بنفس المرأة بعد القضاء على صفاقس، ضاربا عرض الحائط بكل قوانين الحرب. و أكثر من ذلك فالمؤرخون الإغريق و الرومان يصورونه لنا في وضع المهين، عندما يرفض سكيبيو الاعتراف بزواجه بالأميرة القرطاجية، و يلح على ضرورة تسليمها للرومان كغنيمة حرب، بينما يحاول ماسنيسا استعطافه ليتركها له .

كما يفهم من يقرأ كتابات المؤرخين الكلاسيكيين أن الملوك النوميديين سواء ماسنيسا أو صفاقس و غيرهم أنهم أشخاصا ضعاف الشخصية، يمكن شراء ذممهم بهدايا بسيطة مثل العباءة الأرجوانية و الصولجان و أواني مصنوعة من الذهب، و كأنهم أشخاصا عاديين و ليسوا ملوكا يتوفرون على الثروات، و متعودين على اتخاذ القرارات الصعبة، و قادة عسكريين يجابهون الأعداء باستمرار و يتعرضون لخطر الموت في كل وقت .

من كل ما سبق نستنتج أن ماسنيسا استغل الدعم الروماني له في صراعه مع صفاقس و قرطاجة لاسترجاع مملكته و توحيد نوميديا، لكن

[43]) Appien , Guerre libyque, 94

ذلك كان مؤقتا حيث كما استفاد من الرومان ، استفاد منه هؤلاء في إنهاك قرطاجة و إضعافها حتى أوصلها إلى درجة لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها، وهي الوضعية التي استغلتها روما لتعلن عليها الحرب سنة 149 ق.م. و توجه لها الضربة القاضية، و إزالة آخر عقبة أمام هيمنتها على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

كما ندرك أن الساسة الرومان تميزوا ببعد النظر و التخطيط على المدى المتوسط و البعيد، فهم انتظروا طويلا حتى ينهكوا قرطاجة و يقضوا عليها بعد ذلك، كما أنهم سينتظرون قرابة القرن للقضاء على نوميديا(46 ق.م.)، و قرنا بعد ذلك للإجهاض على موريطانيا(40 م.) .